المحاضرة الرابعة :

اللغة الشعرية في الشعر العربي المعاصر

تمهيد:

لقد حاول الشعراء المعاصرون أن يجددوا الشعر من خلال تجديد لغته . إذ وجدوا اللغة التقليدية جامدة عاجزة عن مواكبة حركة الحياة فثاروا عليها. ووجدوا أن القاموس الشعري قد أصبح مجرد ألفاظ ميتة تحمل معاني محددة مكررة لا تمت إلى حياتهم بصلة. ومن ثمَّ كان لا بد من تجديد اللغة على ضوء تجربة جديدة وفهم جديدة للحياة. "لقد أيقنوا أن كل تجربة لها لغتها وأن التجربة الجديدة ليست إلا لغة جديد أو منهجاً جديداً في التعامل مع اللغة .

1- اللغة الشعرية عند نازك الملائكة :

قامت ثورة نازك الملائكة على اللغة التقليدية التي جمدت بفعل التكرار وبليت بكثرة الاستعمال حتّى فقدت معناها وتأثيرها وعلاقتها بالحياة. إن اللغة العربية في نظر نازك فقدت إيحاءها وقوتها التي كانت تتمتع بها من قبل بعد أن ابتليت بأجيال عملت على تحنيطها وصنع ألفاظ جاهزة وزعوها على الشعراء والكتاب حتّى أصبح الشعر مجرد صناعة وكلمات تستعمل في هذا الغرض أو ذاك، فلكل موضوع مفرداته المخصوصة التي تحدد شعرية القصيدة بعيدا عن تطور التجربة وتغير شروط الحياة. وهذا ما عاناه رواد الشعر العربي الحر وحاولوا التخلص منه إيماناً منهم أن اللغة كائن حي كما ترى نازك يحيا ويتطور، وقد يصاب بالفقر والموت إذا لم يجد المناخ المناسب للحياة والنمو. فثمة ألفاظ تموت وأخرى تولد وثالثة تكتسب حياة جديدة. وهذه هي سنّة الحياة وهذا منطق التطور الذي يجب على الشاعر مراعاته إذا كان يريد للشعر أن يكون مصدراً للحياة ودافعاً لها. لهذا تطالبه بـ"أن يدخل تغييراً جوهرياً على القاموس اللفظي المستعمل في أدب عصره، فيترك استعمال طائفة كبيرة من الألفاظ التي كانت مستعملة. ذلك لأنَّ الألفاظ تخلق كما يخلق كل شيء يمر عليه أصبع الاستعمال في هذه الحياة المتغيرة. وهي تكتسب بمرور السنين جموداً يسبغه عليها التكرار فتفقد معانيها الفرعية شيئاً فشيئاً، ويصبح لها معنى واحد محدود يشل عاطفة الأديب ويحول دون حرية التعبير".

وتذكر نازك في مقدمة ديوانها (شظايا ورماد) طائفة من الألفاظ ملّتها الأسماع ومجّتها الأذواق لكثرة تداولها حتّى أنها لم تعد تعبر أو توحي بشيء مثل "عنبر، غصن بان، قد، هلال، صدغ، عود، نرجس، لؤلؤ"، مع أنها كانت معبرة في العصور السابقة بل كانت دليلاً على الرقة والذوق والتجديد، ولكن الاستعمال الكثير جردها من معناها فأصبحت مجرد كلمات يعاد تكرارها كلما تطلب الموضوع ذلك بعيداً عن تجربة الشعراء وحياتهم.

والتجديد لا يعني بالضرورة استعمال مفردات جديدة و طرح مفردات قديمة وإنما يعني إعطاء الكلمة دلالاتها الجديدة من خلال رؤية جديدة وتوظيف جديد للأشياء والكلمات. وألفاظ مثل الطائرة أو الصاروخ أو الغواصة لا تعني أن القصيدة حديثة بالضرورة. فقد استعمل شوقي والرصافي والزهاوي مفردات معاصرة لهم بطريقة تقليدية لانعدام الرؤية الجديدة والإحساس الجديد بأشياء العصر. ومن هنا فإن الألفاظ التي ذكرتها نازك يمكن استعمالها بطريقة حديثة تكسبها أبعاداً أخرى. وهذا ما حولت نازك استدراكه في مرحلة أخرى من حياتها فقالت: "هناك كلمات في العربية أثقلها أسلافنا في عصور الظلام باقترانات لم نعد نطيقها اليوم ... ولكن هذه الكلمات تستطيع أن تتفتح وتنبض لو أدخلناها في سياق استعارات وتشبيهات معاصرة تنتمي إلى حياتنا".

لقد كانت نازك في (شظايا ورماد) تهتم بالألفاظ في ذاتها من حيث قدمها وحداثتها وتذكر طائفة من الكلمات التي رأت أنها فقدت روحها وشعريتها ثمَّ أدركت أن الألفاظ يمكن إحياؤها من خلال استعمالها في سياقات جديدة في كتابها (محاضرات في شعر علي محمود طه) في بداية الستينيات. فقد أصبحت تعتقد أن اللفظ لا يوسم بالنثرية أو الشعرية في ذاته وإنما يتحدد ذلك من خلال السياق.

لقد أدركت نازك أن تطور اللغة وحياتها إنَّما ينبع من حياة الشاعر وتجربته وليس من الكلمات ذاتها. فالشاعر قادر من خلال إحساسه الجديد بالمفردات وتجربته في الحياة أن يعطي لها دلالات شعرية من خلال توظيفها في سياق جديد. فالشعر ليس صناعة بل تجربة. فهو يستطيع أن يضيف لوناً إلى كلمة ويصنع تعبيراً جديداً وإن خرق قاعدة استطاع أن يخلق البديل ليصبح ما أبدعه قاعدة جديدة .

2- اللغة الشعرية عند صلاح عبد الصبور:

يتفق صلاح عبد الصبور مع نازك في أن اللغة كائن حي يتطور ويبلى ويموت. فاللفظ يأخذ دلالة جديدة من خلال علاقة جديدة مع ألفاظ أخرى حتّى إذا فقد إيحاءه بكثرة الاستعمال أو لصعوبة صوتية فقد مدلوله وبلي كما يبلى الثوب وترك مكانه لألفاظ أخرى . كما يتفق مع نازك في أن اللغة العربية غنية ولكنها فقيرة في الوقت نفسه. وقد أفقرها الموقف المتحفظ من أدوات الحضارة والمصطلحات العلمية الجديدة ولا سيما في العلوم الإنسانية. كما أفقرها تعفف الشعراء عن استعمال ألفاظ جرى استعمالها في الحياة رغم عربيتها الأولى إيثاراً للزينة على الصدق. ويذكر مقطعاً من قصيدة (الأرض الخراب) لإليوت فيها ألفاظ مثل (الشاي، الغسيل المنشور، الأطقم الداخلية، الجوارب " ثمَّ يعلق عليها فيقول: "ومما لا شك فيه أنها هي الكلمات الوحيدة التي تستطيع نقل الصورة التي هدف الشاعر. وينتهي عبد الصبور على أن في مكتبه كثيراً من المدركات الحسية مثل (علبة السجاير، القداحة، الصور الفتوغرافية، المطفأة المزهرية، المروحة، علبة الأقراص المنبهة والمهدئة...)التي يمكن توظيفها شعرياً لو امتلك الشاعر الحديث الجسارة اللغوية وخرج عن القاموس الشعري.

ويذكر عبد الصبور أنه كان في بداية تجربته الشعرية يحرص مثل أترابه على أن تكون لغة الشعر منتقاة ظناً منه أن ثمَّة كلمات شعرية وأخرى نثرية، واعتقاداً منها أن الكلمة هي التي تعطي للنص شعريته. لهذا كان يحرص على أن تخلو اللغة الشعرية "من أي كلمة فيها شبهة العامية أو الاستعمال الدارج ، لكنه أدرك "أن الشعر لا قاموس له، وأن الشعر الحديث في العالم كله قد تجاوز منطقة القاموس الشعري منذ أمد ليس بقريب".

3- اللغة الشعرية عند أدونيس:

رفض أدونيس مثل زملائه فكرة القاموس الشعري لأنَّ الكلمة في ذاتها لا تصنع شعراً إنَّما الشعر هو الذي يصنع كلماته الخاصة من خلال سياق خاص. فهو يعطي لهذه الكلمات دلالات جديدة لم تكن لها في الأصل لتصبح شعرية في مكانها من النص.

كما رفض أدونيس القواعد والمقاييس التي تميز الشعر عن النثر، واكتفى بوجوب شعريته ، فالشعر هو كل تعبير شعري سواءً أكان بالنثر أم بالوزن ، ويقصد بالتعبير طريقة استخدام اللغة ، فالشاعر يستخدم اللغة استخداما شعريا جديدًا ، وهو ما دعا إليه كثير من شعراء الحداثة العرب خاصة رواد قصيدة النثر كيوسف الخال وأنسي الحاج وجبرا إبراهيم جبرا وغيرهم.

فالفرق بين الشعر والنثر شكلي لغوي ، وهو لا يكمن في المادة الصوتية بل يكمن في نمط من العلاقات يقيمها الشعر بين الدال والمدلول من جهة وبين المدلولات من جهة أخرى ، هذه العلاقات الخاصــة التي تجعل لغـة الشعـر لغة إيحاءات على نقيض اللغة العامة أو لغة العلم التي هي لغة تحديدات .

لقد ميز أدونيس لغة الشعر عن غيرها ، فرفض النزول بها إلى مستوى اللغة العادية التي يستعملها العامة ، كتلك التي دعا إليها نزار قباني حيث خلق لغة " أقنعها أن تجلس مع الناس في المقاهي والحدائق العامة وتتصادق مع الأطفال والتلاميذ والعمال والفلاحين"، أو تلك التي دعا إليها يوسف الخال وسمّاها: " اللغة المحكية" التي توظف العامية *، وتتجاوز قواعد اللغة العربية ، يقول يوسف الخال: " فالأدب الحديث لا يكون حديثا ما لم يكتب بلغة حديثة ، لغتنا الحديثة هي اللغة التي نتكلمها ، وبها يجب أن نكتب شعرا ونثرا يستمد لغته وتعابيره وعبقريته وإيقاعه من كلام النــاس".

ورغم عدم كتابة أدونيس بلغة يوسف الخال وإيقاعه فإنه لا يهاجمه ، بل يعتبر كتابته نمطا من أنماط الحرية ، وللشاعر أن يكتب ما يشاء ، لكنه يفضل الكتابة باللغة الفصحى " وكنت أقول دائما إنه

حتى لو افترضنا أن اللغة العربية لغة ميتة فأنا سأكتب إلى أن أموت بهذه اللغة التي ربما يسميها بعضهم لغة ميتة ... إذا ذهب الإعراب من اللغة العربية تصبح لغة أخرى لا أستطيع أن أكتب بها" .

وأدونيس مع تمسكه بقواعد اللغة العربية يرفض أن تكون تكرارا أو إعـادة لنماذج وقوالب قديمة ، إذ يجب أن يجد فيها الشاعر مُسايرة لحياته وتجربته ، فاللغة تكتسب فرادتها كونها لغة شاعر بعينه ، فتجسد رؤياه ، ولا تختلط بلغة شاعر آخر سواه ، فليس بمقدور الشاعر " أن ينشئ لغة جديدة وطريقة جديدة في التعبير الفني بهذه اللغة ، ولكن في قدرته وبهذا يمتحن ، أن يتناول اللغة الكائنة والطريقة المتوارثة ويرغمها على التفاعل – كمبنى– مع المعنى الفردي والفريد الذي جاءت به تجربته ".

فلغة القصيدة لابد أن تعبر عن رؤيا الشاعر، فلا ينبغي له أن يستخدم أساليب القدماء لأنها لا تستجيب لتجربته وحياته ، وهو ما أطلق عليه أدونيس " التجاوز" وعدّه أبرز خاصية في اللغة الشعرية.

- **التجاوز:**

لا يقصد أدونيس بالتجاوز قطع صلة الشاعر بالتراث إنما يعني به : " تجاوز طرق في الرؤية والكتابة واستخدام لغة لم تعد قادرة على الاستجابة لحياة الشاعر وتجربته .

والتجاوز عند أدونيس دليل على تميز الشاعر وقدرته على الإبداع فـ" كل شاعر يشعر ويفكر ويكتب انطلاقا مما هو ، وما هو كذات كاتبة مغايرة بالضرورة لما هو غيره قديما أو معاصرا ، وهذا يعني أن له طريقته المختلفة المتميزة في استخدام اللغة ، بهذه الطريقة ينتج كلامه الخاص المغاير" ، فلكل شاعر طريقته في خلق لغة شعرية تتجدد بتجدد إبداعه ، يقول :

واليَوْمَ لِي لُغَتِي
ولِي تُخُومِي وَلِي أَرْضي ولي سَمْتي.

وخلق اللغة الشعرية يكون بخلق علاقات جديدة يقيمها الشاعر بين الدال والمدلول " فلا يتحقق الشعر إلا بقدر تأمل اللغة وإعادة خلق اللغة مع كل خطوة وهذا يفترض تكسير الهياكل الثابتة " . وهو ما دعا إليه أدونيس وجسده في شعره يقول :

كَم قُلتُ جِئْتُ بلا طُقُوسٍ
ووَهبتُ نفسي للجُمُوح، لِكُلّ رَفْضٍ
كم قلتُ: أخرقُ هذه اللغَةَ الأمِينَةَ للأُصولْ
أَرُجُّ قاعدةَ الأصولْ

فأدونيس يعلن مشروعه القائم على خرق اللغة وقوالب الشعر ونظامه، يقول:

بَابِلُ جِئْنَا

نَبْنِي مُلْكًا آخرَ، جِئنا

نُعْلِنُ أنَّ الشِّعْرَ يقينْ

والخَرْقَ نِظَامْ.

4- اللغة الشعرية عند يوسف الخال :

ويؤكد يوسف الخال المنحى الذي أخذه أدونيس في أن الألفاظ تستخدم في النثر كما تستخدم في الشعر، وأن الفرق يكمن في طريقة الاستخدام. ومن ثمَّ فليس هناك ألفاظ شعرية في ذاتها وأخرى نثرية بذاتها. بل تكتسب شعريتها أو نثريتها تبعاً للسياق ذاته. فهي في النثر تحتفظ بالمعنى الأصلي لأنها تستعمل لما وضعت له اصطلاحاً، بينما تخرج في الشعر عن ذلك لتوحي بمعان جديدة لدخولها في علاقات جديدة. ومن ثمَّ تكون الألفاظ في الشعر موحية ومكثفة وتبقى في النثر مباشر. ويستعمل الخال مصطلحات التكثيف والتعقيد والإيحاء لوصف الكلمة في الشعر. فهي مكثفة نتيجة تعدد علاقاتها بغيرها، فهي تلون غيرها وتتلون به. أمَّا التعقيد فإنما ينشأ من هذا التعدد العلائقي الذي يجعل الكلمة توحي بمدلولات كثيرة لا يمكن حصرها. فالكلمة في الشعر ليست بسيطة بل معقدة لأنها علاقة وليست مجردة كلمة. إنها سياق أو بنية وهو ما تفتقر إليه الكلمة في النثر. الكلمة في الشعر كلية لأنها تشع بمعاني الكلمات المختلفة في النص حتّى لتصبح هو كل الكلمات. والخال هنا أيضاً لا يميز بين لغة الشعر ولغة النثر الفني شأنه في ذلك شأن أدونيس. فكل تعبير شعري عندهما شعر.

دعا يوسف الخال إلى استعمال لغة الحديث اليومي في الشعر، فاللغة عنده مرتبطة بالحياة، وكتابة أدب يواكب الحياة لا يمكن أن يتحقق إلا باستعمال لغة الكلام المحكي .